العرب
الجمعة 2021/01/01
السنة 43 العدد 11928

قبل صناعة النجوم الأجدر بناء صناعة سينمائية

الفنان الجزائري حسان كشاش: الفيلم التجاري يمكن أن يكون مرافقا للسينما الملتزمة

تحفل السينما الجزائرية بالعديد من التجارب الهامة، سواء على مستوى الإخـراج أو التمثيل أو الكتابة، ورغم أهمية الكثير من الأفلام الجزائرية التي نالت شـهرة عالمية، فإن الصناعة السينمائية في الجزائر ما زالت قاصرة عن تحقيق حركية حقيقية، تحرر قطاع السـينما والعاملين فيه. "العـرب" كان لها هـذا الحوار مع الممثل الجزائري حسـان كشـاش، حول مختلف التفاصيل في مسـيرته ومساره الفني، وحول رؤيته لواقع السينما في بلاده.

من الطب والإعلام إلى عالم التمثيل

صابر بليدي
صحافي جزائري

الجزائـر – ينتقل الممثل والفنان حسان كشاش بطل السينما والدراما الجزائرية، بين الأدوار المسـندة إليه بسلاسة كبيرة، فكمـا تجده بطلا في مسلسـل "الخاوة" الاجتماعـي، أدى دور القائـد والمناضل التاريخي "مصطفى بن بولعيد" بامتياز في سـينما الثورة، صانعا بذلك لنفسـه خصوصية مميزة سـاعدته على تقمص الشخصيات والأدوار في مختلف صنوف التمثيـل الدرامـي والسـينمائي، وربما التحـول المرن في حياته الشـخصية –لمّا انتقل من مجـال الطب والإعلام إلى عالم التمثيـل– مكنه مـن التكيف مـع خياره المفصلي.

كانـت بدايته مع فيلم "كانت الحرب" المنتج عـام 1993، تحت إشـراف المخرج أحمد راشـدي، ثم ظهر في فيلم "العرش" للمخـرج محمد شـويخ، ففتحـت أمامه أبـواب التألـق ويسـتوطن بذلـك عالم السـينما والدراما الجزائريـة والعربية، خاصة فـي مسلسـل "الخـاوة"، وفيلم "مصطفى بن بولعيد" الذي توجه أحسـن ممثـل فـي المهرجـان الدولي للسـينما العربية بوهران سنة 2009.

من الطب إلى السينما

هناك سر لافت في حياة الفنان حسان كشاش وتحوله من وظيفة الطب والإعلام إلـى التمثيل، رغم أن هنـاك من الفنانين مـن يتوجه إلـى مهـن أكثر اسـتقرارا وأريحية، عن ذلك يعلق قائلا "هي مسألة خيـارات، ولسـت هنا من بـاب الدخول بمدخل فلسـفي، ولكن أعتقد أن ذلك كان وفق مقولة 'إن لم تشـأ أن تتعب يوما ما فاعمل شـيئا تحبه'، ومن هذا الباب أرى أن علاقة الإنسـان بما يمارسه من نشاط إذا كانت مبنية على الحب وعلى الشغف فإن الطريق أمامه مفتوح ليتقدم بشـكل مطرد، وأنا أحب السينما".

> المجال مفتوح لتشتغل سينما المؤلف أو السينما الملتزمة التي ميزت السينما الجزائرية جنبا إلى جنب مع الفيلم التجاري

ويـردف "لا أدري مـا إذا كان الخيار ماديا فقط. أوافقك في أن الإنسـان يمكن أن يمضي إلى جهة فيها راحة واستقرار، ولكـن فـي المحصلة هـل هـذا النموذج المهنـي الـذي أبحث عنـه؟ هنـاك أمور داخليـة تدفعك أحيانا إلى الشـيء الذي تحبـه، لأن كل هذه الأشـياء من التعابير الفنيـة هي الإنسـان بكل مـا يختلج في نفسه من أحاسيس ومشاعر، وأنا سعيد بهذا الخيار".

وعن الحالـة أو اللحظـة التي صنع فيهـا الخيـار، يقـول "فـي المحصلة كل إنسـان يحب أن يكون شـيئا مما يشده. يوجد أناس يحبون الغناء أو الموسيقى، وأنـاس حتـى لـو صـار الواحـد منهم بروفيسـورا فـي الفيزيـاء، ربمـا يبقى لديه مثلا حـب التوجه للمهـن اليدوية. كنـت محبا للسـينما المبنية على الخيال والأحـلام التي تنفتح علـى الآخر، وكان الأمـر موجـودا كحلـم، وأتت مناسـبة وصدفة أن التقيت بالأستاذ أحمد راشدي، ومن هنا ربما انطلقت البداية التي أبحث عنها، واشـتغلت في هذا المجال، ولكنني بقيـت لفتـرة بين أخذ ورد بين السـينما وبين عملي المهني كطبيب، إلى أن اتخذت قرارا نهائيا بالاتجاه إلى السينما".

ولأن المخرج أحمد راشـدي، أو عراب السـينما الثورية في الجزائر، هو مصدر إلهامـه الأول، يرد على سـؤال لـ"العرب" في هذا السـياق بالقول "أحمد راشـدي تجربـة متميزة، هو من أعمدة السـينما الجزائريـة وينتمـي إلى جيـل مخضرم عاش الجهاد والثورة وعاش الاسـتقلال، وكان مـن الجيـل الأول الذي تكـوّن في السـينما، وبالتأكيـد فـي بدايـة بنـاء الإنسـان تكون الخيـارات المتاحة أمامه كبيرة، فأن تختار السينما يعني أن هناك حبا لها بالداخل".

ويضيـف "أحمـد راشـدي، علـى المسـتوى الإنسـاني، متواضـع، طيب، لصيـق بالوطـن والمجتمـع، واضـح الانتماء، كريم يقتسم ما لديه مع الآخرين، وأيضا هـو مثقف وقـارئ ومطلع وأدار مؤسسـات سـينمائية منذ الاسـتقلال. أما على المسـتوى الفنـي بالتأكيد بدأت السينما مع الأستاذ راشدي، فتلقفت ألف باء السـينما من عنده ومـن خلال عملي معه، وهناك أمـور تحصل لك في البداية وتبقـى بذاكرتـك دائما. أحكـي لك مثلا: كنا في الفيلم الأول ونحن نصور مشاهد الحـرب، قال لـي هذا سـلاحك الخاص. ألسـت جامعيا، هذا هـو قلمك الخاص، ولا يجب أن يبتعد عنك أبدا. العسكري لا يترك سـلاحه وتلك الملاحظة بقيت عندي في كل الأفلام التـي صورتها، أي تقمص الشخصية الحقيقي".

ويلفـت كشـاش إلـى أن العلاقة بين المخـرج والممثل فيها نوع مـن التواطؤ، فهمـا يتعامـلان معـا كشـريكين، وهذا النوع من التعامل حبه كثيرا، حيث يكون هناك تقاسـم في الرؤيـة يعطي ويوصل المعلومة وبعدها يأخذها الممثل ويعطيها بُعدهـا التمثيلي، وقد أنجز معه خمسـة أفـلام تاريخية وثورية بدءا من الشـهيد بـن بولعيد إلـى العقيد لطفي، وشـارك فـي الفيلم ما قبل الأخير "أسـوار القلعة السبعة".

وحول الأسـاس الـذي يعتمـده في اختيار أدواره، وإمكانية تدخله فيه شكلا أو مسـاحة بينية، يذكر حسـان كشـاش "السـيناريو هـو كتابة أولـى للفيلم، ثم يأتـي التصوير وهو الكتابـة الثانية، ثم يأتـي المونتاج، أنت محكـوم في البداية بسـيناريو، ولسـنا هنـا فقـط بصـدد عمل تاريخـي أو ذاتي، ولكـن نتكلم عن شـخصيات اشـتغل عليها، وفيها كاتب سـيناريو ولديه مـادة تاريخيـة ولجنة قراءة وافقت عليها".

ويتابـع "أنـا لا أتدخـل فـي هـذا الموضـوع، يمكـن أن أعطـي رأيـا على مستوى الشخصية عبر اقتراحات تبحث في الشـكل أكثر مما تبحث في المضمون ودائما يكون هناك أخذ ورد، وهذا يتحدد حسب نوع الفيلم".

أمـا عـن سـر اختيـاره لأدواره في السـينما والدرامـا، هـل هو الـدور أم العمل عمومـا؟ فيجيـب "بالتأكيد هناك عـدة عوامل، أولا ماذا سـتعمل ومع من، ويأتـي في ما بعد الجانـب المادي، ولكن الشـخصية هي التي تشـدني، فلا أحبذ شـخصية دون اهتـزازات ولا تلـك التي ليـس فيها عمق. تشـدني الشـخصيات المركبة التي من خلال مسـارها تواجهك صعوبـات وعوائـق، فتحـاول وتجتهد لتلافيهـا أو تتأقلـم معهـا أو تغيـر في سـلوكها وتعاملها مع الموضوع، وكل ما كان هـذا النسـيج مركبا أكثـر وفيه كل الحالات من فـرح وحزن وغضب وإحباط ويـأس يسـتهويني، وبعـد ذلـك يأتـي التعامـل مـع مخـرج قوي يسـتطيع أن يخرج مني أشياء أجهلها أنا".

أما عـن دور تكوينه الأصلي كطبيب، فـي أداء دور طبيـب سـبق أن اختطفـه المتشـددون واحتجزوه عندهـم لمعالجة جرحاهـم، في فيلـم "بانتظـار الوقت"، يذكر "قد يساعدني بمسائل شكلية، ولكن المشـاهد المتعلقة بالمستشـفى والطبيب لـم تكـن كثيرة، الشـخصية هـي طبيب مختص، وفي مرحلـة ما يجب أن يتزوج ابنة عمه ولديه مشـكلة عائلية ومشـكلة مهنية ليصبح رئيس قسـم بمستشـفى، وجرت أحداث غير متوقعة، هنا ساعدني بالأمور التقنية.. مثلا أنا دخولي كطبيب في المستشـفى، وكيف أمشي بين الأقسام وعلاقتـي بالمرضـى وتعاملـي معهـم بالنسـبة إلى حركـة عادية، ممـا يجعل الأمور تسير بسلاسة".

ويضيـف "أعطيك مثـالا آخر: عندي مشـهد فـي مسلسـل 'الخـاوة' يتوجب عليهم فيه أن يأخـذوا مني الدم، وعندما أتى المخرج سـألني كيف نعمل ذلك؟ قلت لـه نعم تأخـذوا الـدم. اسـتغرب قائلا: أتفعلها؟ قلت له عادي أنا متعود على هذا الفعل ليس غريبا عني، ولكن لدينا فرصة واحدة للتصوير، وعندما يكون الاشتغال على الطبيـب كطبيب، ليس كالاشـتغال فـي الفيلم على الطبيـب كمهنة، بقدر ما هو على تجسـيد الطبيب لحالة نفسـية أو اجتماعيـة في السـينما، بمـا يعني أن الفيلم لن يسـير نحـو الأمور التقنية، ولكنه يهـدف إلـى تبليغ رسـالة مقنعة للمشاهد".

الصناعة السينمائية

ردا على سـؤال حول غيـاب صناعة النجم في الجزائر رغم وجود أسماء لامعة في السـينما والدراما بشـكل عام، يقول كشاش "أولا يجب أن تكون هناك صناعة سـينما. عندنا إنتاجات، ولكن هل نمتلك أرضيـة ومنتجـين خواصا يسـتثمرون برأسـمالهم؟ هنـا تصبـح المعادلـة بين المنتج الذي يسـتثمر المليارات، والتوجه لصناعـة النجم، الأمر شـبيه بفريق كرة القدم الذي يأتـي باللاعب المتميز فتدخل العملية ببعدها الاقتصادي، إذن يجب أن نمضي كل مرحلة في الفترة الخاصة بها، ففي البدء يتوجب بناء صناعة سينمائية وصناعـة دراما تلفزيونية، لتأتي صناعة النجـوم كتحصيـل حاصـل. الإمكانيات موجودة ولكن يجب أن نشـرع في مقاربة عقلانية للمسألة".

وعـن رؤيتـه الشـخصية لهـذه الإشـكاليات، يـرى أن "الصناعة بحاجة إلـى مـا قبـل ومـا بعـد، مـا قبـل هو التكوين للعاملين في المجال السـينمائي والفنيـين والتقنيين وكتاب السـيناريو، ثم تأتـي صناعة الفيلم التـي تقوم على البنـى التحتيـة المرافقـة للعمليـة وما تقدمـه من خدمات مـن أكل ونقل وديكور وإكسسـوارات، يجـب أن يكـون هنـاك مهنيـون مختصـون يعملـون عليهـا، ليأتي في ما بعد سـؤال أين نصرف هذه البضاعة التي أنتجناها؟".

ويتابـع "يلزمنـا موزعـون، كيـف نـوزع الفيلم داخل وخـارج الوطن؟ وكل مرحلة لهـا متطلباتها. وتأتـي القاعات السـينمائية في ما بعد. هل توجد قاعات سينما؟ موجودة وحسب الوضع الحالي أكثر من 80 قاعة جاهزة، والوزارة تبحث فـي الصيغـة الأنسـب التي يمكـن من خلالها استغلال هذه القاعات، والمفروض ألا يتأخـر الموضوع لوضع دفتر شـروط لدخول المهتمين بالموضوع".

ويلفـت إلى أنه "إلى حـد الآن الدولة تنتـج كل الأفـلام السـينمائية والدراما التلفزيونيـة بمولين خـواص، والكمية مسـتمرة ومرشـحة لأن تتطـور أكثـر، بحكـم عدد القنوات المنتشـرة التي تهتم بالإنتـاج الدرامـي والسـيتكوم والتوك شـو، وغيرهـا. والدراما قـادرة على أن تتقـدم أكثـر وتتوسـع بقـدر مـا يكون هنـاك تمويل أكثر، وهـذا مرتبط بعملية انتعاش اقتصادي والعودة إلى النشـاط الطبيعي الـذي كان ما قبل كورونا، وهو ما سينعكس على الكل، وبعدها نصل إلى سؤال كيف يمكن أن نفتح مجالا للسينما الخاصة والفيلم التجاري؟".

ويواصـل "يجـب أن يشـارك فـي السـينما رجـال الأعمال المهتمـون بهذا الاسـتثمار ويرونـه مربحـا، وأيضـا البنـوك يمكن أن تدخل مـن خلال عملها أثناء الانتظار لتقديم تمويلات أساسـية للإنتاج وتمكين أصحابها من الاستمرار. مهمة وزارة الثقافة توفير البنى التحتية والسياسـة الثقافيـة العامـة، وليـس الدخول فـي تفاصيل إنتاجيـة صغيرة، هـي منظمـة تدعـم وتعطي مسـاعدات للفيلم عبر المركز السينمائي، ولكنْ هناك إشـراك أيضا للتلفزيـون الذي يدخل في عمليـة صناعة الفيلم. نحن ما زلنا نفتقر إلـى المنتجين الخواص لندخـل العملية التجارية كنشاط اقتصادي".

وعن جدوى اسـتمرار إنتاج السينما الثورية، وقدرتها على تسـويق الصورة التاريخيـة بعـد مرور عقـود كاملة على الاسـتقلال الوطنـي، خاصـة فـي ظـل محاولات التمرد على الرواية الرسـمية، يرى كشـاش أنه "عندمـا نتحدث عن المخرجـين الأوائـل راشـدي ولخضـر حامينـا وعمار العسـكري، يتوجـب أن نتحدث عـن التجربة خاصة وأن فـي الجزائـر هناك حاجـة ملحـة وموضوعيـة وواجبة للاشتغال على الهوية والذاكرة والشخصية وكل تضحيات الشعب الجزائري خلال الثورة، وهذه الضرورة أرى شخصيا أنها لا تزال قائمة، لكن كيف يمكن أن نشكل الفيلم الجديد، وكيف يمكن أن نسوقه، وما هي المقاربة المناسبة؟".

ويردف "يمكن الاشتغال على سيناريوهات كثيرة تتكلم عن ثـورة التحريـر وتضحياتها، مثلا موضـوع الطلبة في الثورة لا يوجد حوله سـوى فيلم أنجزته ريم لعرج، وفي المحصلـة ما أنجزناه مـن أفلام عن ثورة التحريـر لا يرتقـي إلى مسـتوى الثورة ولا إلـى جزء مـن التاريـخ، لأن التاريخ إنجاز عظيم مشـترك للشعب الجزائري، ومـا يجعل للأمـر قيمة هـو الإنجازات المشتركة الكبرى بين أفراد الشعب، وعليه يستوجب أن يبقى هذا التاريخ مرجعية، ولكن الإشكالية كيف نقدمها؟".

ويفصل في الأمر بالقول "يمكن بكتابة السيناريو أن تأخذ جزئيات مختلفة، وكم عدد الشخصيات الثورية التي تناولناها بأفلام سينمائية؟ إنها بعدد الأصابع، هل أنجز مـا يكفي؟ هذه السـينما الأميركية تتكلم عن رؤساء أميركا في العشرات من الأفـلام وكل فيلم له رؤيـة، وأيضا كيف يمكن أن تنجـز فيلما بمقاييـس عالمية؟ التحدي موجود ويجب الاشـتغال عليه، وكان هـذا منذ البدايـة، ولكن في ما بعد أتـت أفـلام اجتماعية أخرى مثـل 'ليلى والأخريات' والأفلام الكوميدية".

ويتابع "اليوم توجد سـينما شبابية بطموح الشـباب الخـاص ورؤيتهم لهذا العمل وتصورهم للواقع، وبمقاربات لكل منهـم من زاويته الخاصـة، ولكن المجال مفتوح لتشتغل سينما المؤلف أو السينما الملتزمة التي ميزت السـينما الجزائرية، جنبا إلى جنب مـع الفيلم التجاري، لأنه يمكـن إشـراك الفيلم التجـاري من أجل تكوين صناعة سينمائية، والمجال مفتوح حيـث يمكن أن تجـد أفلاما بموضوعات متنوعة بما فيهـا الفيلم التجاري، ليس بالضرورة أن تكـون المعادلة إما سينما ثورية أو سينما أخرى.. يمكن أن يسيرا مع بعضهما البعض".

ويبقى الفنان حسان كشاش واحدا من القامات الواعدة في السينما والدراما الجزائرية والعربية، فعلاوة على أعماله داخل بلاده في عدة أعمال مختلفة، شارك في الفيلم التونسي الجزائري "النخيل الجريح" للمخرج عبداللطيف بن عمار، وفيلم "الحياني" للمخرج المغربي كمال كمال، فضلا عن المسلسل السوري "خاتون"، للمخرج تامر إسحاق والمثنى صبح.

سينما الثورة ما زال لها ما تقوله